# آخر مظهر

# لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى

## ١٨٩٥ - ١٩١٤

استنادًا الى وثائق غير منشورة

بقلم
الكسيس بوكوليوبسكي ، والاب جبرائيل لوقنك اليسوعي

لقد اعتاد الباحثون ، اذا ما تكلّموا عن تدخّل روسية بشؤون الشرق الادنى الدينية ، ان يوقروا بمظاهر هذا التدخّل الى معاهدة كاينارجي المعقودة سنة ١٧٧٤ ، والواضحة ، في نظرهم ، مبدأ اهتمام روسية بشؤون الطائفة الارثوذكسية في سورية . على ان هذا الاهتمام يرقى، في الحقيقة ، الى ما قبل القرن الثامن عشر، فيبدأ في اواخر القرن السادس عشر ، عهدَ اخذت موسكو تظهر بمظهر الدولة الكبيرة مستقلةً بطاريركيتها بشؤونها الدينية . منذ ذاك العهد ، بدأ بطاركة العالم الارثوذكسي يتجهون بانظارهم نحوها ، فيسألونها المعونة المادّية خاصةً . ولنا في رحلة البطريرك مكاريوس ( ١٦٥٢ — ١٦٥٩ ) التي نُشرت مرّات[1] ، دليل على ما كانت تتحف به روسية احبار الارثوذكس من هدايا وإعانات . وكان يقابل هذه الرحلات الى روسية رحلات أخرى يقوم بها عدد من الروسيين فيزورون البلاد المقدسة ويقيمون مدة في سورية . وقد يُدفع بعضهم الى درس الطقوس الشرقية الارثوذكسية والمقابلة بينها وبين طقوسهم المسكوبية .

هذا ملخص ما كان من العلاقات بين العالم الروسي والعالم الارثوذكسي في الشرق الادنى ، قبل معاهدة كاينارجي . وقد كان من المنتظر ان تأتي

---

١) اطلب *Patrologia Orientalis* XXII, 1930.

هذه المعاهدة بصلات جديدة ، متتابعة . على انها ظلت مدة طويلة محفوفة بالغموض حتى لا يمكننا درسها وتمييز مظاهرها .

الى ان كان القرن التاسع عشر ، فرأينا الحكومة الروسية تهتم الاهتمام الجدّي باولئك الزوّار الروس الذين لم ينقطعوا عن رحلاتهم الى الشرق الادنى ، فتعمل على تسهيل اقامتهم وتحسين احوالهم ولا سيما من الوجهة المادّية ؛ كما انها بدأت تهتمّ كذلك بحالة ارثوذكس الشرق ، فنظمت ارساليات دينية كانت تقوم بكل نفقاتها . ولكن نتائج هذه الاعمال كانت ضئيلة ، لم يرضَ عنها ولاة الامر انفسهم في روسية . اما اسباب هذا الفشل فكانت تُنسب من جهة الى مقاومة الحكومة التركية ، ومن جهة اخرى الى معاكسة الاكليروس الارثوذكسي نفسه ، وكل بطاركته من اليونان .

بيدَ انه حصل حدثٌ مهمّ في السنة ١٨٨٢ . تأسست جمعية روسية دعت نفسها « جمعية فلسطين » ، واتكلت على رجل شديد الايمان ، بعيد الهمة ، قويّ الارادة ، هو باسيل خيتروفو . فهم غايات الحكومة الروسية ، ولكنه لم يكتفِ بمظاهرها الضئيلة ، فوسّع نطاق عمله ، واضعاً نصب عينيه تحقيق فكرة اولية هي مقاومة الاكليروس اليوناني . كان يرى ان مصائب الارثوذكسية ، ولا سيما من حيث الاخلاق ، ناتجة من الغرب ، وان الاكليروس نفسه مصاب بوبأ « الاستغراب » ، فاذا عملت « جمعية فلسطين » على محاربة الاكليروس اليوناني ، تكون قد مهدت لها السبيل الى ترقية ارثوذكس سورية علماً واخلاقاً ، مستندةً في مهمتها هذه الى معاضدة الزوار والسيّاح الروسيين المقيمين او المارّين في سورية . وعليه فقد كانت السياسة الوطنية الروسية ، في نظر خيتروفو ، متعلقة بالسياسة الدينية ، وتابعة لها . من الحق ان هذه النظرية لم ترق جميع اعضاء الجمعية ، وقد رآها بعضهم على قسطٍ وافر من التطرّف . الا انها لم تحدث اختلافاً يُذكر ، فأخذت الجمعية تقوم بجهود جبّارة ، مباشرةً ، على مدة ، جنباً الى جنب ، مع رجال السياسة الرسميين .

وكان اول ما رمت اليه نزع بطريركية اورشليم من الاكليروس اليوناني . ولكن كل ما قامت به من المحاولات كان نصيبها الفشل . فاتجهت انظارها

الى بطريركية انطاكية ، والعنصر اليوناني فيها اضعف ، وارثوذكس سورية ارقى ثقافةً ، واوفر غنى ، واقرب الى المشاغبة ، من ارثوذكس فلسطين . وهكذا تحوّلت اعمال الجمعية الى سورية ، على احتفاظها باسمها الاصلي اي « جمعية فلسطين » . فبدأت مشاريعها سنة ١٨٩٥ . ولم يمضِ عليها خمس سنوات حتى كان لها ٤٢ مدرسة روسية في مختلف الابرشيات من بطريركية انطاكية . وفي السنة ١٩١٣ كان لها ٨٢ مدرسة فيها ١٢٠٠٠ تلميذ من الجنسين . اما في فلسطين فلم يكن لها الا ٢٥ مدرسة . وكل هذه المدارس كانت مجانية ابتدائية ، يعلّم فيها اساتذة سوريّون يديرهم على الغالب مديرون من الروس . وكانت مقسومة الى منطقتين : المنطقة الشمالية تتعلق بمفتش مركزه طرابلس ؛ والمنطقة الجنوبية يراقبها مفتش آخر مركزه دمشق . وكانت الجمعية تنتظر من كل هذه الاعمال نتائج دينية . اما الحكومة فكانت ترجو نتائج سياسية . ومن هنا يقدر الباحث ان ذلك الاتفاق الاصلي بين المؤسستين لم يكن ليدوم طويلاً بسبب اختلاف الغايتين .

وقد فازت الجمعية بنصر باهر سنة ١٨٩٩ ، اذ عملت على نزع البطريركية في سورية من يد الاكليروس اليوناني . وكانت الحكومة قد بدأت منذ السنة ١٨٩٥ ، سنة دخول الجمعية سورية ، بتوزيع عدد مهمّ من الاوسمة ، فمنحت البطريرك اسبريدون ، وكان من المحكوم عليهم في نظر الحكومة والجمعية ، وساماً من اكبر اوسمة الامبراطورية وهو وسام القديس اسكندر نفسكي ؛ ومنحت المطران غرائيل ، متروبوليت بيروت ، وسام القديسة حنة من الدرجة الاولى ، وكلًا من المطران اثناسيوس ، متروبوليت حمص ، والمطران جراسيموس ، متروبوليت سلوقية ، وسام القديس فلاديمير من الدرجة الثالثة . ومنحت عدداً من رجال الدنيا اوسمة من جوقة القديس ستانيسلاس من الدرجة الثالثة ، وبعض الميداليات [1] . ولم يُحرم موظفو الدولة التركية من هذا التوزيع .

---

١) عن كتاب مدير القسم الاسيوي المؤرخ في ٢٨ اذار ١٨٩٦ ، برقم ٢٢٠٤ ، وكتاب جدوفسكي ، السفير في القسطنطينية ، في ٢٧ حزيران ١٨٩٦ ، رقم ٤٧٤ .

فمنح ناظم باشا ، والي دمشق ، وسام النسر الابيض[1] . وقد قامت الحكومة التركية ، من جهتها ، سنة ١٩٠٢ ، فاعترفت بالمدارس الروسية في بلادها .

على ان هذه المدارس ، مع ما كلفته من الاهتمام ، كانت عرضة لانتقادات كثيرة من وجوه مختلفة :

كان اعضاء الجمعية « الصيمون » ، حتى رئيسها الغراندوق سرج ( الذي اغتيل سنة ١٩٠٥ ) ، لا يرون بعين الرضى تعدد المدارس في سورية ، معتبرين ان في هذا المظهر انحرافاً عن غاية الجمعية الاصلية . وكان ارباب السياسة الروسية يرون في المدارس المذكورة ادوات لنشر النفوذ الروسي في تركية ، ولكنهم لم يكونوا ليهتموا بسلامة عقائد الجمعية ، ولا بتعليم اللغة الروسية ، وهما من النقاط المهمة في انشاء هذه المدارس .

اما السكان فلم يكونوا يطلبون الا مدارس عملية تعلّم اولادهم علوماً يمكنهم استخدامها حالاً ، فتساعدهم على تحصيل معيشتهم . ولهذا كانوا يطلبون بالحاح تعليم اللغات الاجنبية . وهو ما لم تكن تصغي اليه الجمعية ، رافضة تعليم اللغة الفرنسوية واللغة الانكليزية .

واما الاتراك فكانوا يرون هذه المظاهر فيعتبرون بها ، ويستفيدون من الحوادث ، كما فعلوا على اثر الحرب الروسية اليابانية . ولكنهم لم يتابعوا سياستهم هذه في عرقلة سير المدارس الروسية[2] .

حتى كانت السنة ١٩٠٦ ، فأتت بفشل مهم في السياسة الروسية المدرسية . وكان سببه ارثوذكس سورية انفسهم . وتفصيل ذلك انه في السنة ١٩٠٦ ، توفي ارل بطريرك وطني وهو البطريرك ملاتيوس . فرشحت روسية المطران اثناسيوس عطا الله ، متروبوليت حمص . ولكنها لم تنجح ، اذ فاز بالبطريركية

---

١) كتاب زينوفييف ، السفير في القسطنطينية ، ١٤ تموز ١٩٠٠ — وان هذا التاريخ يدفعنا الى السؤال : هل من علاقة بين هذا الوسام الكبير الممنوح الى والي دمشق ، ونجاح السياسة الروسية في انتخاب بطريرك عربي الاصل في السنة ١٨٩٩ ؟

٢) تقرير سري لباتيوشكوف ، قنصل روسية في دمشق ، بتاريخ ٤ تشرين الاول سنة ١٩٠٥ ، رقم ٣١٦

المطران غريغوريوس حداد ، من طرابلس ، الذي لم يكن من محبي روسية ، ولا من الراضين عن سياستها . ومنذ ذاك الحين اخذت العلاقات تتوتّر بين الجمعية ، وقنصلية روسية في دمشق ، والطائفة الارثوذكسية .

وقد صرّح باتيوشكوف ، قنصل روسيـة في دمشق ، في تقرير رسمي « ان كثيرًا من التلميذات تترك مدارسنا وتدخل في مدارس اللازريين[1] او في مدارس الانكليز البروتستانت » وهو ينسب هذا الحادث الى رغبة الاهالي في المهاجرة الى اميركة ، ويذكر من حججه طلب عدد من الفلاحين ان تُدخل المدارس الروسية اللغـة الانكليزية في موادّ التعليم . وهو يعود الى هذه الفكرة في حديثه لاحد مراقبي الجمعية ، فيلفت نظره الى هـذه الظواهر المؤسفة ، وينصحه « بتعليم اللغة الفرنسوية ، على الاقل ، وهي لغة نافعة في التجارة » . ولكنه يزيد قائلًا : « يظهر ان هذا معاكس لقوانين الجمعية . »

وفي تقرير آخر[2] يقوم القنصل بحملة شديدة على طريقة تعليم اللغة العربية في تلك المدارس ، ناسباً المعلمين الى جهل مهتهم احياناً ، قائـلًا ان عددهم قليل ، على كل حال ، ومعاشهم ضئيل .

وكأنه اخذ على نفسه ان يعمل جهده في تحسين تلك الحالة ، فكتب في السنة نفسها[3] : « لقد اخذ السكان يعتقدون شيئاً فشيئاً ان للجمعية غايات خاصة تجعلها تصرف هذه المدارس عن كل تظاهر علني باعمالها . فلا حفلات ختامية للسنة المدرسية ، ولا توزيع جوائز . . . ولا يخفى ما في هذا من الضرر للجمعية . ومهما يكن من أمر فان مدارس الجمعية احط من مدارس منافسيها . »

اما المعلمون الروسيّو الاصل ، فكانوا يظهرون عجرفةً ممقوتـة ، ويعيشون منفردين عن زملائهم السوريين ، على عكس ما يظهر بين معلّمي سائر البعثات الاجنبية ، فانهم ، وان كانوا منتمين الى رهبنات او جماعات دينية ، يظلّون على اتصال بكثير من الوطنيين .

---

١) اي مدارس راهبات المحبة .
٢) بتاريخ ٢٦ شباط ١٩٠٦ ، رقم ٣٦
٣) بتاريخ ٢٦ حزيران ١٩٠٦ ، رقم ٨٠

وان في المراسلات بين قنصلية دمشق ، وسفارة الاستانة ، موضوعات جمة تظهر التذمر والاحتجاج . من ذلك انه في السنة ١٩٠٩ ، اقفلت الجمعية كثيراً من مدارسها في ابرشية عكار بسبب ما قام به متروبوليتها ، المطران باسيليوس ، من عمل عدّته الجمعية غير لائق . فكتب السفير تشاريكوف ، من الاستانة ، يوصي القنصل بان يزور البطريرك ، فيقنعه بضرورة حرمان المطران باسيليوس من نصيبه بالاعانة المعطاة لبطريركية انطاكية ، « على الاقل ، حتى يمحو بسلوكه واعماله ، تذكار تلك الحملة الشائنة التي قام بها على روسية وعلى جمعية روسية . »[1] ولكن هذا التوتر بالعلاقات لم يطل . فان الاحتياجات عملت على التخفيف من تلك الصعوبات التي ذكرها قناصل روسية بين قنصلياتهم والطائفة الارثوذكسية . وكانت الحكومة الروسية قد اعلنت عزمها على امداد احبار الطائفة باعانات سنوية ، ودفعت فعلاً الى البطريرك ٤٠٬٠٠٠ فرنك عن السنة ١٩٠٨ . فقام غبطته في آخر السنة المذكورة ، بتاريخ ١٩/٦ كانون الاول ، بمناسبة عيد الامبراطور ، بحفلة باهرة في كاتدرائية دمشق ، القى فيها خطاباً ونثاراً في مآثر جلالته ومآثر الدولة الروسية . ولهذا ، عندما بلّغه القنصل رغبة السفير في حرمان المطران باسيليوس من نصيبه ، لم ير صعوبة في تحقيق تلك الرغبة . فخصص مبلغ الاعانة ، على ثلاث سنوات ، ( ٣٦٠ ليرة فرنسوية ذهباً ) لتسديد ما تركه سابقا المطران باسيليوس ، وهما المطرانان كريسانتوس ونيقوديموس ، من ديون بلغت ٤٠٬٠٠٠ غرش ، « عملة طرابلس »[2] .

الّا ان آمال القنصل بهذه الاستعدادات الطيبة لم تتحقق تماماً . فان المعارضة عادت الى الوجود عندما حان وقت توزيع الاعانات . فاضطر اولياء الامر الى زيادتها حتى بلغت ٨٠٬٠٠٠ فرنك ذهبي ، اي ما يعادل تقريباً ٤٥٠٬٠٠٠ فرنك من العملة الحالية . وكان البطريرك ، فوق ذلك ، يطلب ، بواسطة ممثله في الاستانة ، ان تسدّد روسية ما على البطريركية من ديون قديمة . وهو طلب ردّ عليه الامير بوريس شاكوفسكي ، قنصل دمشق الجديد ، بانه مستحيل

١) من رسالة السفير المؤرخة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٠٩ ، رقم ٨١

٢) من رسالة البطريرك غريغوريوس في ١٥ حزيران ١٩١٠ ، رقم ٣٨

التحقيق . وزاد قائلاً : « ان السفارة الامبراطورية تأمل ان ترى كنيسة انطاكية عاملةً على تهيئة نظام عامّ ، توافق عليه الحكومة العثمانية ، وتنظّم بموجبه اعمال البطريركية الادارية والمالية . »[1]

وقد كانت هذه الرغبة رغبة القنصل المقيم في مركز البطريركية ، والواقف على كل ما هناك من صعوبات ومشاحنات ، اكثر منها رغبة الحكومة الروسية ، او رغبة الامبراطور نفسه . لان الوزارة التي كانت قد ارسلت الى القنصل مبلغ الـ ٨٠٫٠٠٠ فرنك ، لم تطلب سوى البلاغ بوصول المال ، مع وصل بامضاء البطريرك بتسلّم القيمة بجملها . وهذا ، وفقاً لروح تقرير وزارة الخارجية الذي اقرّه الامبراطور بتاريخ ١٧ تموز ١٩٠٨[2] . ولم تكن السفارة تتكلم كالوزير تماماً . اما القنصل فلا يظهر انه اهتمّ باقوال الوزير ، ولا باقوال السفير . بل كتب بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩٠٩ ، تحت رقم ٣٣٦ ، معلناً الى البطريرك وصول القيمة ، قائلاً : « انه من الآن فصاعداً ستتولى القنصلية توزيع انصبة الابرشيات ، فتعطي هي نفسها كل ابرشية ما يصيبها من المال » . وفي ٢٣ كانون الاول ( رقم ٦٤ ) يُعلن طريقة التوزيع : كل ابرشية تنال من ١٢٠ الى ١٥٠ ليرة فرنسوية ذهباً ، ما عدا ابرشيتي بيروت وطرابلس ، فلا تنال كل منهما الا ٥٠ ليرة ، لانهما « ليستا بحاجة الى الاعانة » . وهو يسير الى ابعد من ذلك ، فيقسم كل نصيب الى قسمين : قسم للنفقات الخاصة لا يراقب انفاقه احد ، وقسم لاعانة المدارس والكنائس ، ويجب ان يدوّن بهذه النفقات حساب خاصّ يُرفع الى القنصلية .

وعلى هذا المبدأ ، تناول البطريرك ، تلك السنة ، ١٢٠٠ ليرة فرنساوية ذهباً قُسمت كما يلي : ٤٠٠ ليرة لنفقاته الخاصة ، و٤٠٠ للمدرسة الاكليريكية في دير البلمند ، و٤٠٠ للمدارس والكنائس . ونال متروبوليت حمص ٦٠ ليرة لمداومه وكنائسه . وقد تناول ، عدا ذلك ، اعانة سنوية تبلغ ٥٠٠ روبل ( نحو ١٤٫٠٠٠ فرنك ذهباً ) للمدرسة الارثوذكسية في حمص المؤسسة تلك

١) من رسالة قنصل دمشق بتاريخ ٩ كانون الاول ١٩٠٩ ، رقم ٣٣٥

٢) من رسالة بتاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩٠٩ ، رقم ٦٣

السنة . وكذلك نال كل من مطارنة حماه ، وحلب ، وديار بكر ، ونائب مرسين ١٥٠ ليرة . على ان الاثنين الاخيرين لم يكن عليهما تقديم حساب لقنصلية دمشق ، لانهما خارجان عن منطقة سورية . ونالت ابرشيات اللاذقية ، وزحلة ، وحوران ، وصور ، ١٥٠ ليرة لكل منها . اما ابرشية لبنان فلم تنل الا ٦٠ ليرة . وكان قسم النفقات الخاصة يبلغ من ٢٠ الى ٥٠ ليرة .

اما نتيجة هذا التوزيع فكانت ضجة صاخبة اشترك فيها السفير ، وجمعية فلسطين ، والبطريرك ، والمطارنة ، واعيان الطائفة . حتى الجرائد الروسية نفسها ، فذكرت جريدة « نوفويي فريما » بتاريخ ٤ نيسان ١٩١٠ ، التأثير السيئ الذي احدثته تلك الطريقة في التوزيع ، في الاوساط الارثوذكسية السورية . وارسل وزير الخارجية يطلب ايضاحات من السفير في الاستانة ، ويستنكر تلك الغيرة التي اظهرها قنصل دمشق ، قائلاً : « اعتقد من واجبي ان الفت نظركم الى ان فكرة الامير شاكوفسكي بتوزيع الاعانات رأساً على المطارنة والمؤسسات الدينية ، خارجاً عن البطريرك ، لا اراها صالحة . لان هذه الطريقة في التوزيع تكون ، في الحقيقة ، تدخلاً بشؤون البطريركية الداخلية قد يؤدي الى نتائج مؤسفة . وفضلاً عن ذلك ، فان طريقة كهذه تعاكس المعنى الدقيق للقرار المقدم الى الامبراطور والذي اقرته جلالته بتاريخ ١٧ تموز ١٩٠٨ . وترون طيه نسخة عنه . »[1]

وهكذا قضي على تجربة قنصل دمشق .

اما المشكلة المدرسية فكانت اصعب من ان تحل بمثل هذه السهولة . كانت الحكومة الروسية ترغب في اصلاح هذه المدارس مدفوعة بروح السياسة الوطنية العملية . وكانت الجمعية ، في استنادها الى روح التقليد باسم روسية المقدسة ، ترفض كل تلك المحاولات الاصلاحية بحجة انها مأخوذة عن الروح الغربية . وقد زاد تشبثها بهذه المبادئ التقليدية حتى انها فكرت ، اذا اضطرت الى قبول الاصلاح ، بالغاء المدارس كلها .

على انه بالنظر الى الروح الجديدة في روسية البرلمانية ، والى الروح الجديدة

١) من رسالة الوزير بتاريخ ١٢ نيسان ١٩١٠ ، رقم ١٢,٢٥٣

كذلك في تركية القتاة ، اخذت الحكومة الروسية تتسع في مرمى انظارها على آسية التركية ، فتعدّ العدّة لعمل واسع في الشرق الادنى. وهو ما كان قد خطّه السفير تشاريكوف الى قنصل دمشق بناء على تعليمات وزارة الخارجية[1] .

وكان من مظاهر هذه الخطة ان أُعطي قنصل دمشق وحده حقّ التدخل السياسي بالشؤون المتعلقة ببطريركية انطاكية . اما سائر القناصل فكان عليهم الّا يغفلوا المراقبة الدقيقة لحوادث الحياة الدينية ومظاهرها في الابرشيات. على انهم لم يكن من حقّهم ان يبدوا الملاحظات او يعطوا النصائح في الشؤون الدينية ، لا الى اعضاء الاكليروس ولا الى العلمانيين . ولم يكن من حقّهم ان يقبلوا العرائض ولا ان يحرّروها ، ولا ان يسمعوا التصريحات او المعلومات المتعلقة بالبطريركية ، او بشؤون الكنيسة الداخلية.

فكان من الطبيعي ان يزداد نفوذ قنصل دمشق ، اذ صار في يديه سلاح جديد سيستعمله في حلّ مشكل المدارس المقلق . لان الجمعية عندما تكلمت بعزمها على اقفال مترصفيها ومدارسها البالغة ٨٢ ، اقلقت فعلًا كل اولياء الامر . فطلب السفير من قنصل دمشق تقريرًا ضافياً مفصّلًا. فسار القنصل الى الاستانة ، وكانت جمعية فلسطين قد ارسلت ايضاً الى الاستانة ، في كانون الاول ١٩٠٩ ، سكرتيرها العامّ ، الاستاذ دمتريفسكي ، ومفتش مدارس الجليل ، السيد رياجسكي ، وهما مشهوران باللطف والمرونة. فاستقبلهما السفير واضاف اليهما السيد كوهتسكي ، وكيل القنصل في بيزرند ، بصفة مقرّر عامّ.

ولم يكد الامير شاكوفسكي يرجع الى دمشق حتى ارسل الى السفير ، في ١٨ كانون الاول ١٩٠٩ ، رقم ٣٦ ، التقرير المطلوب ، متضمّناً فكرة رجال السياسة وموظفي حكومة الامبراطورية ، حاملًا حملة شديدة على نظريات الجمعية ، وخاصّة تعليم اللغة الروسية في مدارسها ، مستندًا في كل ذلك الى روح الوطنية المخلصة ، والسياسة الروسية الحقّة ، مصرّحاً انه ليس بالامكان ان نفكّر بالغاء هذه المدارس . والّا فانّ هذا العمل انتحار ادبي لروسية

[1] رسالة السفير بتاريخ ٢٢ كانون الاول ١٩٠٩ ، رقم ٩٨

في الشرق . وذلك ان الجمعية — على كونها جمعية خاصة في نظر الشرع — لا يمكن ان تنفصل في نظر الشرقيين عن الحكومة الروسية . ومن البراهين على ذلك انه ، مدة الازمة البطريركية في السنة ١٨٩٨—١٨٩٩، كانت السفارة الروسية تعضد ، لدى الباب العالي ، حقّ الطائفة الارثوذكسية الوطنية في سورية، وتضع تحت تصرّف قنصل دمشق مبالغ كبيرة في سبيل مساعدة المطارنة الوطنيين في ذاك الانتخاب ؛ تقوم بذلك لحساب جمعية فلسطين ، وهو امر معروف مشهور . ثم ان الحكومة التركية اعترفت رسمياً سنة ١٩٠٢ بهذه المدارس بصفة كونها روسيّة . وان لنا فيها ادوات حسنة للعمل والتأثير لا يجدر بنا ان نهملها في هذه الايام ، ولا نعرف ما يخبّئ المستقبل للدولة التركية .

ولكن ان يكن من المستحيل الغاء المدارس الروسية ، فمن المستحيل كذلك ان تُترك في حالتها الحاضرة . لا شك في انها تجابه أزمة مدرسية شديدة ، وهو امر لا ينكره مجلس ادارة الجمعية . فما هي اسباب هذه الازمة ؟ هي اولًا الجمود مدة ٢٥ سنة في عصر كل ما فيه يتحرّك ، ويتحرّك بسرعة . ثم الانصراف عن تعليم اللغات الغربية . وفي اية حالة يكون النفوذ الروسي اوسع واعمق اثرًا ؟ أفي مدرسة خالية من التلامذة يكوّن فيها تعليم اللغة الروسية اجباريًا ، ام في مدرسة لا تجبر على تعليم هذه اللغة ، ولكنها مأهولة بالتلامذة ؟ لندخل في منهاج التعليم اللغة الفرنسوية واللغة الانكليزية . هذا شرط اساسي بدونه لا حياة لمدارس الجمعية .

ثم ان القنصل يعرض فكره في مسألة التعليم المجاني ، فلا يوافق عليه . ويقدّم ملاحظات وآراء بشأن فتح مدارس للتعليم الثنوي ، طالباً اصلاحاً تامًا لتنظيم مدارس الجمعية .

وفي اوائل سنة ١٩١٠ ، بعد ان قام مفتّشو الجمعية بدورة على المدارس ، وصلوا الى دمشق في ٢٧ كانون الثاني ، فاجتمعوا في دار القنصلية بممثلي وزارة الخارجية . وكان قد أضيف الى المفتشين المذكورين اعلاه السيد ستاسيفتش ، مفتش مدارس سورية الجنوبية .

وهناك طالت المناظرة واحتدمت ، وكان لكل فيها نصيب وافر. واخيرًا اسفرت عن ترك نظرية الجمعية الى الاخذ بالآراء الاصلاحية. ثم نُظّم مشروع بالاصلاحات المهمة. ولقد كان من الممكن تنفيذها حالًا ، لولا مجلس « الدوما » الذي كان يغربل كل الحسابات ، ولولا التسلسل الاداري الذي كان يؤخر كل التقارير . واخيرًا أقرّت النفقات الاصلاحية لاول كانون الثاني ١٩١٣. وكانت الجمعية في تقريرها المرفوع الى الامبراطور عن السنة ١٩١٢ — ١٩١٣ ، وفي مشروعها لموازنة السنة ١٩١٤ ، قد ادخلت الاصلاحات المفروضة.

ثم جاءت الحرب ، فغيّرت مجرى كثير من المشاريع . على ان مفتش المدارس في سورية الشمالية قرّر فتح المدارس ، ومتابعة العمل[1] . حتى اذا شُهرت الحرب ، اخذ قنصل بيروت ، السيد باتيوشكوف ، جميع المعلمين الروسيين في صحبته ، على ان تواصل المدارس عملها بواسطة المعلمين الوطنيين . ولكن هذا القرار لم يصادفه النجاح ؛ كما ان البطريرك جرّب ، اثناء الحرب ، ان يحافظ على بعض مدارس البنات فلم ينجح . بل تلاشت هذه المشاريع كلها بتلاشي روسية الارثوذكسية.

***

بقي ان نسأل عمّا كان يعرفه ويقوله المرسلون اللاتين عن هذه التنظيمات الروسية والمشاريع الارثوذكسية ؟ من الحق انهم لم يعرفوا شيئاً مما اطلعتنا عليه الوثائق الرسمية . ولا غرابة في ذلك . فان اطلاعهم لا يتجاوز مشاهدة المظاهر الخارجية المدرسية خاصّة . وهو ما نتحققه من هذين النصّين اللذين نعرضهما على القرّاء ، على سبيل المقارنة بينهما وبين ما تقدّم:

النصّ الاول يرقى الى السنة ١٨٩٨ ، اي الى اوائل الدعاية الروسية ، وهو مأخوذ من رسالة كتبها الاب جوزف برّنيه اليسوعي الذي كان متّصلًا بارثوذكس حمص وعكار ، قال : « ان موظفي روسية يعملون عملهم ، من مدّة طويلة ، بين الارثوذكس . حتى يمكن ان نعتبر اليوم انهم فازوا بالنصر . وها ان قيصر روسية كاد يصبح الهاً في نظر روم سورية . يدلّ على ذلك موقف فلّاح من

(١) من رسالة بتاريخ ١٤ ايلول ١٩١٤ ، رقم ٢٢٠

حمص دخل بيتاً مارونياً في ضواحي طرابلس ، فرأى فيه صورةً لبطرلا الثاني ، ولما سمع انها صورة امبراطور روسية ، دهش اصحاب البيت ، اذ رأوه يكشف عن رأسه ويأخذ بتعداد رسم اشارة الصليب ، وبالسجود ، كما يفعل امام مذبح كنيسته ، او امام صورة العذراء ، وصورة القديس جرجس . ولا يخفى ان المدارس الرومية الموجودة تأخذ الاعانات من روسية . وقد فتحت مدارس جديدة حيث لم يكن . وفي كل هذه المدارس تُعطى الاهمية لتعليم اللغة الروسية . حتى اخذت هذه اللغة ، في حمص ، تدخل في التراتيل والصلوات الطقسية ، بل في القداس نفسه . ولكن من الراجح ان هذا الحادث موضعي فقط . »[1]

وهذا نصّ آخر نأخذه عن تقرير وضعه ، في السنة ١٩٠٦ ، ش . گيرّن ، ولم يُنشر بالطبع ، على ما نعلم . قال (ص ٣٣) :

« ان النفوذ الروسي الذي كان عظيماً قبل الحرب الروسية اليابانية قد ضعف منذئذٍ . » ثم ذكر هذا الامر الغريب وهو « ان ارادة سنية ( تركية ) حرّمت على المسلمين ان يذهبوا الى المدارس الروسية . وقد نُفّذت هذه الارادة . » وكان ذلك قبل سنة ١٩٠٢ ، كما يُستنتج مما تقدّم ، لانه في تلك السنة (١٩٠٢) اعترفت تركية بالمدارس الروسية . اما في ما خصّ عدد هذه المدارس فيذكر منها المقرّر مدرسة للبنات في بيروت ، وبضع مدارس في حمص ، ومدرسة في بسكنتا ، ومدرستين في طرابلس فيهما ٣٧٠ تلميذًا ، ومدرستين في الناصرة فيهما ١٤٥ تلميذًا . ويذكر ان في القدس ٧٠ تلميذًا ، وفي اللاذقية ٢٠٠ تلميذ .

***

هذا ما رأينا استخلاصه من تلك الوثائق الرسمية التي لم يسبق نشرها ، ولا نظن انها تُنشر يوماً ما . عسى ان يكون فيه مادّة للمشتغلين بهذه الناحية من تاريخ سورية المعاصر .

---

[1] راجع *Relations d'Orient*, 1898, p. 43